مَـاعِ الأذهَان

الأدب والعلم

للأستاذ أحمد أمين

الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مرت كلمة الأدب والعلم في اللغة العربية في أدوار عدة . استعملوا كلمة الأدب أحياناً فيما يرقى الخلق ويهذب النفس واستعملوها أحياناً بمعنى أوسع حتى عدوا أفحش شعر لجرير والفرزدق والاخطل أدباً، وعدوا خرجات أبي نواس وغلمانياته أدباً كما يعد الفنان بعض الصور فناً وان كانت صورة لوضع مستهجن أو فعل فاضح . وكذلك الشأن في كلمة العلم ، كانوا أحياناً لا يستعملونها إلا في العلم الديني ، ثم توسعوا في معناها حتى شمل كل ما ينتجه العقل والفن .

وفي العصور الحديثة فرقوا بين الأدب والعلم ورسموا لكل دائرة، ومن ثم كانت الصحيفة أو المجلة أحياناً أدبية، وأحياناً علمية ، وأحياناً أدبية علمية، وأصبح من المضحك أن نقول علم الأدب لأن العلم غير الأدب، وأصبح لدينا من يسمى أديباً، فلا يكون عالماً وعالماً فلا يكون أديباً، وقد يكون أديباً عالماً ولكن كلمة «عالم» الأزهرية انما اشتقت من العلم بالمعنى الواسع الذي يشمل الأدب والعلم معاً .

وبعد فما الفرق بين العلم والأدب ، وما الذي يجعل الأدب أدباً والعلم علماً ؟

الحق أن كلمة الأدب والعلم من الألفاظ الغامضة التي نفهمها نوعاً من الفهم فاذا أردنا تحديدها حرنا في أمرها . كالجمال والعدل والخيال والحرية والعبودية، واذا سألنا — حتى الخاصة — في معناها أجاب كل حسب ميوله وأغراضه وحسب طبيعة فهمه للكلمة .

هناك أشياء لا نشك في أنها علم أو أدب. فلو سئلت عن نظريات الهندسة وقانون اللوغارتمات وقوانين الحساب والطبيعة والكيمياء فذلك علم بالبداهة. واذا سئلت عن قصائد بشار وأبي نواس والمتنبي ومقامات الحريري فذلك أدب لا علم ، ولكن ما حدود الأدب وما حدود العلم؟

قد عودتنا الطبيعة أن الاضداد تفهم ما تباعدت، فاذا ما تقاربت حدودها صعب فهمها، ما أسهل ما تقول ان هذا ظل وهذا شمس ، ولكن عند تقارب الظل من الشمس تجد خطوطاً يصعب أن تقول أهي ظل أم شمس، وما أسهل ما تقول ان هذا الماء حار أو بارد اذا اشتدت حرارته وبرودته ولكن ما أصعب ذلك اذا أخذ الحار يبرد والبارد يسخن فانك تصل لا محالة الى درجة يعسر عليك الحكم فيها بالحرارة أو البرودة .

أكبر ظاهرة في التفريق بين الادب والعلم أن الأدب يخاطب العاطفة، والعلم يخاطب العقل ، فاذا قلت ان زوايا المثلث تساوي قائمتين فانك تخاطب العقل ولا تمس العاطفة واذا قال المتنبي :

خلقت ألوفا لو رحلت الى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكياً

فهو يمس العاطفة أولا، ومن أجل هذا كانت الجملة الاولى علما وبيت المتنبي أدباً .

العالم يلاحظ الاشياء يستكشف ظواهرها وقوانينها وعلاقتها بأمثالها وما يحيط بها ، على حين أن الاديب لا ينظر اليها إلا من حيث أثرها في عواطفه وعواطف الناس ، ينظر الباقي الى شجرة الورد فيدرس كل جزء منها والتغيرات التي تطرأ عليها من وقت بذرها الى وقت فنائها، ومن أية فصيلة هي ، وما علاقتها بالفصائل التي تقرب منها، أما الأديب فينظر الى أجزاء الشجرة منسقة متناسبة ويرى أنها لم تخلق إلا لزهرتها الجميلة ، وأن بين الزهرة وقلبه نسباً . يعجب بحمرة لونها على خضرة أوراقها ويذهب خياله في ذلك كل مذهب أما الباقي فيبحث لم كانت الزهرة حمراء وأوراقها خضراء .

عالم الحياة لا يرى في الفتاة المحبوبة إلا انساناً خاضعاً لكل ابحاث البيولوجيا أما الاديب فيرى في محبوبته شيئاً وراء كل ما يبحث عنه العالم هي ، الحياة وهي الدنيا وهي النعيم اذا وصلت والبؤس اذا صدت، أو يقول مع القائل :

ويلاه ان نظرت وان هي أعرضت ... وقع السهام ونزعهن أليم

فالكلام اذا لم يثر عاطفة لم يكن أدباً فاذا هو خاطب العقل وحده كان علما ، واذا أمعن في اثارة العاطفة كان أمعن في الادب .

وليس الأدب وحده هو لغة العاطفة فقد تفوقه في هذا الموسيقى فهي قادرة على أن تضحك وتبكي ، وتسر وتحزن، وتسر سروراً حزيناً ،

وتحزن حزنا سارا، وتتوجع ألما لذيذا، وتظل لذة أليمة، وتثير الشجاعة حتى لتدفع الى الموت، وتمتلئ الخمول حتى لتدعو الى القوم. تقدر الموسيقى أن تفعل كل ذلك فى العاطفة، وهى أقدر من الأدب لأن الأدب يخاطب العاطفة بواسطة الكلام ومن طريقه أما الموسيقى فتخاطب العاطفة وجها لوجه من غير وسيط. تؤثر فيك أدوار العود والقانون والبيانو ولو لم تصغ بكلام ولو لم تفهم أى معنى منها، بل قد تكره أن تفهم الا النغم وحلاوته والتوقيع وعذوبته.

أما الأدب فلما اعتمد على الكلام والكلام انما يفهم بالعقل، كان لابد للقطعة الادبية من قدر من العقل ومن المعانى تستثار بها العاطفة وتهيج بها المشاعر.

وارتباط العاطفة بالأدب هو الذى منح الأدب — لا العلم — الخلود. فالناج الأدبى خالد أبدى لا الناتج العلمى، فقصائد امرئ القيس والنابغة وجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس والمتنبى كلها خالدة تقرؤها فتلتذ منها كما يلتذ منها من كان فى عصرهم، فأن احتاج الى شىء فتفسير ما غمض من الألفاظ والمعانى. وهو بعد يشعر بشعورهم ويسر كسرورهم. ثم القطعة الادبية لا تمل، تقرؤها ثم تقرؤها فتسر منها فى الثانية سرورك منها فى الاولى، بل تحفظها ثم تعشق تلاوتها وتكرارها. وليس ذلك هو الشأن فى العلم فحقائق العلوم خالدة ولكن منتجات العلوم غير خالدة فما فى كتاب أقليدس من نظريات هندسية خالدة ولكن الكتاب لا يقرؤه الآن الا من أراد أن يرجع الى تاريخ الهندسة، وكل كتاب فى الهندسة يموت بمرور سنين عليه ولا تعود له قيمة الا القيمة التاريخية مهما حوى من نظريات جديدة وترتيب جديد، وكذلك كتب الحساب والجبر والطبيعة والكيمياء والفلك ليست خالدة وان كانت الحقائق التى فيها خالدة، بل الطبعة الثانية من هذه الكتب تقضى على الطبعة الأولى بالفناء اذا دخلها تغيير، وليس طالب علم الآن يرجع الى ما ألف من خمسين عاما الا اذا أراد أن يؤرخ العلم ولكن طالب الأدب يرجع الى ديوان المتنبى الآن ليتذوق أدبه ويلتذ مشاعره كما كان ذلك منذ ألف عام وقد حفظت بعض قصائده ولا أزال أستمتع بترديدها ولكن لو أنت قرأت كتابا فى الرياضة وفهمت ما فيه لا تستطيع بحال أن تعيد قراءته الا على مضض.

والسبب فى هذا — على ما يظهر — أن عواطف الناس لم تتقدم كما تقدمت عقولهم. قد ترقى العواطف شكلا فترى أن الاحسان الى الفقير بأعطائه درهما ليس خيرا ولكن خيرا منه بناء مستشفى وانشاء ملجأ ونحو ذلك. ولكن العاطفة هى هى فى أساسها وقد ترقى عاطفة الحنو الأبوى فلا ترى مانعا من دفع الاولاد الى حرب الحياة وجوب الانتظار. ولكن العاطفة فى أساسها واحدة. أما العقل فوثاب دائما وراق أبدا فى الشكل وفى الاساس يرى حلالا اليوم ما كان حراما بالأمس ويرى حقا الآن ما كان باطلا من قبل ويخترع كل يوم جديدا ويصوغ حياته وفق الجديد. ومن أجل ذلك لا يلذ له أن يقرأ عمل السابقين الا كما يقرأ تاريخهم ولكن عواطفه هى هى تركت وتركت فتلذذ القوم بما يمثل عواطف الاقدمين وان كرت عليها الدهور وتوالت العصور، وليس الامر بهذا القدر من السهولة فى الفصل بين الادب والعلم. فهناك أنواع تصعب الفصل فيها حتى على الخاصة. أدب هى أم علم، هناك أدب «معلم» وهناك علم «مؤدب». هناك تاريخ صيغ صياغة أدبية فلا يكتفى بسرد الحقائق وتعيين زمن وقوعها وانما يضع ذلك فى قالب يثير شعورك للاحتذاء والقدوة أو للحب أو الكراهة. وهناك فلسفة صيغت فى قالب قصة. وهناك طبيعة وكيمياء صاغتها يد صناع ماهرة فى الفن تحمل قلم أديب فأخرجت منها موضوعات شيقة تثير عاطفة الجمال وتستخرج الأعجاب بما فى هذا العالم من ابداع وفن.

هذه الموضوعات وأمثالها ليست أدبا خالصا ولا علما خالصا وانما هى علم أدبى أو أدب علمى. هى أدب بمقدار ما تثير من عاطفة، وهى علم بمقدار ما فيها من حقائق.

العلم لغة العقل، والأدب لغة العاطفة، ولكن لا بد فى هذه الحياة أن يلطف العلم بالادب، والادب بالعلم، فالعقل اذا جمح استخف بالشعور وجعل الحياة تمثالا للعلم، وهو اذا مزج بشىء من الادب من الحياة ورفه على الناس، والعاطفة اذا شردت كانت ثورانا وهياجا. ألا ترى التعجب يزيد فيكون تباها، والعشق يوهم فيكون جنونا؟

احمد امين

ضحى الاسلام

هو الجزء التالى لفجر الاسلام

بحث فى الحياة العقلية للعصر العباسى الاول

تأليف

الاستاذ احمد امين

الاستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه عشرون قرشا